رحلة مع يعقوب بن كلس

د. عارف تامر

بعض الشخصيات الكبرى التي لعبت دوراً بارزاً على مسرح الاحداث في مواطنها ... لم تنل ما تستحقه من تكريم واطراء واشادة بعد موتها ، ولا أحد يدري لماذا طمست آثارها ، وطويت أخبارها ، ووقف التاريخ منها موقف اللامبالاة ، بالرغم من نجاحها في أعمالها، وحب الناس لها، واخلاصها لوطنها.

ويعقوب بن كلّس ... هذه الشخصية التي نتحدث عنها ، والتي تميزت بسبقها وتفوقها، لم يولها التاريخ العربي ما تستحقه من اهتمام ، واقتصرت المصادر على كلمات عابرة خالية من كل تعريف وتقديم ، ودون أية اشارة الى الدور الذي لعبته على مسرح الأحداث في المشرق العربي ، والى ما سجلته من الصور الجميلة في أذهان الذين عرفوها وعاصروها ، أو الى تأثيرها في الحياة الفكرية والحضارية لأرض الكنانة .

هو : أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلّس ... ولد في بغداد سنة ٣١١ هـ .. من أبوين ينتميان الى أسرة يهودية قديمة وميسورة ، فأدخل المدارس ، وكانت تبدو عليه علائم الذكاء والنجابة منذ الصغر ، وبعد أن شبّ وترعرع ونال قسطاً وافراً من الثقافة ، اتخذ التجارة مهنة له ومتكسباً ... فبدأ بمعاونة والده الذي كان له أهمية كبرى في عالم التجارة ، ولم يلبث أن رحل معه الى الشام في بعض المسائل التجارية ، ومن دمشق قصد بلد « الرملة » حيث اتخذها مقراً لتسهيل أعمال بعض التجار الذين أوكلوا اليه مهمة تسهيل أعمالهم التجارية ، ولكنه بعد فترة قصيرة انتقل الى مصر لملاحقة بعض المشاريع التجارية ، وكانت آنئذ ـ تحت حكم « كافور الاخشيدي » سنة ٣٣٤ هـ. ، وهناك تمكن بحسن سياسته ودهائه ومرونته ولأسباب مجهولة من الاتصال بكافور ، فأعجب به منذ المرة الأولى ، وأحله من نفسه ، ومنحه العطف والرعاية ، لما آنسه فيه من علو النفس والجد والهمة والأمانة ، وهذا ما جعله يلح عليه بالبقاء في مصر

والاضطلاع بمهمة مستشاره الخاص . فأجابه الى طلبه ، وفي تلك الفترة اعتنق الاسلام على أيدي بعض العلماء الذين اختارهم كافور لتدريسه أصول الاسلام ، وهذا ما أثار غضب وحسد وخوف الوزير الأول « جعفر بن الفرات » فأضمر له الشر ، ونصب له الحبائل ... وتشاء الظروف أن يموت صديقه كافور ، وأن يتعزز مركز الوزير ابن الفرات ، فقبض على ابن كلّس وحبسه ، ولكنه لم يلبث أن فرّ من سجنه ، وتوجه الى المغرب ، حيث اتصل بالخليفة الفاطمي الامام المعز لدين الله ، فعطف عليه ، وقربه ، وأفرد له مكاناً بين مستشاريه ، وهكذا ظلّ موضع رعايته حتى تمّ له فتح مصر ، وعندما انتقل الى القاهرة كان يعقوب معه ، وتفسّر بعض المصادر أنه منذ أن كان في خدمة كافور الاخشيدي بمصر كان على اتصال بالفاطميين في المغرب ، يزودهم بكل شاردة وواردة عن أحوال مصر الداخلية والخارجية ، وهناك من يقول ويذهب الى أبعد من ذلك بأنه تجند لخدمة الفاطميين منذ أن كان في بغداد .

هذا ... ومن الجدير بالذكر أن الإمام المعز لدين الله بعد أن استقر في مصر عيّن ابن كلّس وزيراً على الخراج والحسبة وشؤون الأموال ، فأظهر نشاطاً وخبرة لفتت الانظار بسرعة ، واكتسب ثقة الناس والخليفة معاً ، مما جعله يوليه أخيراً أمر النظر في كل شؤون الدولة . فأصبح الوزير الأول .

وبعد وفاة الخليفة المعز لدين الله تسلم العزيز بالله شؤون الخلافة ، فقرب يعقوب وضاعف ثقته به ، وكان قد وصل الى درجة عالية في دراساته الاسلامية وخاصة الفقه الجعفري الفاطمي الذي أولاه اهتمامه وكرس له جهوده حتى أصبح فيه من الأعلام المرموقين .

وفي سنة ٣٧٣ هـ . سجنه الخليفة العزيز بالله في قصره ، وحظّر على كل الناس الاتصال به ولكن هذا الغضب لم يدم طويلاً ، فعفا عنه ، وأمر أن يحمل من قصره الى مقره الوزاري في احتفال مهيب تكريماً له ، وبعد أن ثبتت براءته من تهمة قتل القائد التركي « آفتكين(١) » بالسم .

ومهما يكن من أمر ... فان عودة يعقوب الى منصبه الأول اعتبرت نجاحاً باهراً ونقطة انطلق منها نحو المكانة والنفوذ والسلطان ، مما لفت الأنظار ، وجعل بعض المؤرخين يتبارون بمدحه كقولهم :

انه كان محباً للعلم وللعلماء ، وعطوفاً على الأدباء والشعراء ، ومشجعاً يغدق عليهم المنح والعطايا دون عد أو حساب ... ثم يضيفون على قولهم :

بأنه كان يجمع في قصره العلماء والفقهاء ، ويعين فرق الكتاب لنسخ القرآن الكريم وبعضهم لنسخ كتب الفقه والقانون والحديث والأدب والفلسفة والطب ، وقد عيّن على مقربة منهم فرقة خاصة مهمتها التصحيح والمقابلة والضبط والتصويب لكل ما يكتبه الكتّاب .

وكان في كل يوم ينصب خواناً لخاصته من أهل العلم والشعراء وخواص الادباء ، كما رتب مجلساً آخر للفقهاء والمتكلمين ، وأهل الجدل ... وهذا بالاضافة الى يوم مخصص في الاسبوع للقضاة ولأصحاب الحديث والنحاة حيث يقرأ عليهم مصنفاته ويناقشهم في مضمونها ، وهذه المجالس أشبه ما تكون بالمحاضرات التي تبرز في ختامها السؤالات والمناقشات . أما مجلس المناظرات بين المتكلمين وأهل الجدل ، فقد كان يعقد مرة في الشهر تحت اشرافه ، لأن جميع الطبقات ارتضوه حكماً فاصلاً بينهم .

ومما تجدر الاشارة اليه أن ابن كلّس بلغ في الفقه الجعفري الفاطمي درجة عالية أهلته لان يؤلف الكتب والمراجع ، وقد ذكر ان عددها بلغ المائة ، ولكن هذا العدد الكبير من المؤلفات فقد ولم يبقَ منه الا « الرسالة الوزيرية » في مختصر الفقه ، وبالنظر لأهمية هذه الرسالة فان الخليفة الفاطمي « الظاهر لاعزاز دين الله » طلب الى الدعاة والمستجيبين بأن يعمموها ويحفظوها عن ظهر قلب ، والى القضاة بأن يصدروا فتاويهم في الفقه والقانون بموجبها .

ويجب أن لا يغرب عن بالنا ... بأن ابن كلّس هو صاحب فكرة تحويل الجامع الأزهر الى جامعة علمية ، وعندما حقق هذا المشروع رتب للعلماء وللمدرسين الرواتب والأرزاق ، حتى ان الطلاب الذين كانوا يأتون للدراسة نالهم الكثير من منحه وعطاياه ، وكل هذا يؤكد رعايته للعلم وتشجيعه العلماء لدرجة أن سوق الأدب والثقافة راج في عهده وازدهر ، وأصبح حديث الناس خارج البلاد المصرية .

توفي يعقوب بن كلّس في القاهرة سنة ٣٩٤ هـ(٢) ، ودفن في دار العلم ، وذكر أن الخليفة الفاطمي العزيز بالله عاده في مرضه، وله قول مأثور عند تلقيه خبر موته :

« وددت لو أنه يباع فأبتاعه بمالي ، أو يُفدى فأفتديه بولدي » .

وذكرت المصادر التاريخية :

ان الناس عند وفاة يعقوب بن كلّس تجمعوا من كل حدب وصوب لتوديعه الوداع الأخير ، وعند التشييع خرج الخليفة العزيز بالله من قصره بغير موكب ولا مظلة ، ومشى في جنازته كأي فرد ، والناس من حوله، وكان الحزن يبدو عليه ، والدموع تتساقط من عينيه ، وقد اعتكف في قصره لا يستقبل أحداً مدة ثلاثة أيام ، كما أنه لم يأكل على مائدته ، أو يحضرها من اعتاد حضورها ... ومن الجدير بالذكر أن الناس أقاموا عند قبره مخيمات عديدة لمدة شهر كامل ، وكان يتقدم الشعراء الى قبره في كل يوم لرثائه وتعداد مآثره ، وقيل ان عددهم تجاوز مائة شاعر ، وكل هذا يدل على مكانته في نفس الخليفة ، وفي نفس الشعب الذي أحبه وقدره .

ومهما يكن من أمر ... فان خدمات ابن كلّس للدولة الفاطمية ، لا يمكن أن يحصيها قلم ، ويكفي أن يكون صاحب الرأي الأول باعادة القائد جوهر الصقلي الى القيادة العامة للجيش الفاطمي ، بعد أن كان قد أقصي عن القيادة العامة بعهد الامام المعز لدين الله ، وبعد أن شعر بتضاعف خطر قائد القرامطة « الحسن الأعصم » الذي

تحالف مع القائد التركي « أفتكين » ،وانتزعا العديد من ممتلكات الفاطميين في بلاد الشام ، وكان ذلك بدافع من العباسيين والحمدانيين ·

ويجب أن لا يسهى عن البال بأن ابن كلّس هو صاحب الرأي بادخال عناصر شرقية في الجيش الفاطمي لايجاد نوع من التوازن بالنسبة للجنود المغاربة ، ومن جهة أخرى فانه أدخل العديد من الأتراك بواسطة صهره « رشيق العزيزي » التي تولى احدى القيادات في الجيش الفاطمي ، ولعب دورأفعالاً في حروب بلاد الشام ·

ومن مبادئه الدالة على أخلاقه وانسانيته تقريب الوزير « جعفر بن الفرات » ومساعدته على اعادة اعتباره لدى الفاطميين بعد أن كان يعتبر من أعدائهم، وهذا الوزير كان قد سجن ابن كلّس بعهد كافور الاخشيدي كما ذكرنا ··· وأخيراً زوّج ابنته الى ابنه « الفضل بن الفرات » ·

اشتهر ابن كلّس بميله الى الترف والأناقة ، وارتداء الملابس الثمينة الفاخرة وكان في قصره خزانة خاصة لكسوته وتضم أفخر الثياب وخاصة ما كان منها مخصصاً للحفلات وللاستقبال وللأعياد ، وكان لها ناظر يشرف عليها ·

واشتهر أيضاً الى جانب ذلك بحبه للعمران ، وشق الشوارع ، واقامة الملاعب ، والساحات والحدائق العامة ، والمساكن العائدة للدولة وخاصة المساجد · أما قصره فقد جعله ينافس قصر الخليفة بما فيه من الرياش الفاخرة ، وخزائن الكسوة والأموال والكتب ، وكان مقسماً الى عدد من الأقسام وكل قسم عليه ناظر يشرف عليه ، فهناك المكتبة والكسوة ومكان الطعام والمنامة ، وغيرذلك ، كما أنه أقام حرساً خاصاً به بلغ أربعة آلاف ، وأكثرهم من العبيد والمماليك وكانوا يطلقون عليهم اسم « الوزيرية » ، وبالاضافة الى ذلك كان يوجد في قصره العديد من العبيد والمماليك والحجاب والجواري والأطباء والممرضين الذين أنيط بهم مهمة الكشف عن الأمراض ، ومداواة من يمرض من هذا الحشد الهائل من الناس · ويضاف الى كل هؤلاء الكتاب والشعراء والمتكلمين وأصحاب المهمات والصنائع الذين كان لكل منهم مكان منفرد خاص به ، كما أقيم في قصره عدد من المطابخ لطهي طعام العمال والحراس ، وهذا علاوة على المطابخ الخاصة لخدمته ، وخدمة جلسائه وضيوفه وخواصه · وفي شهر رمضان كان يقيم مآدب الافطار للفقهاء وللشيوخ وللوجوه وأهل الستر والتعفف وجماعات الفقراء والمعوزين ·

ومهما يكن من أمر ··· فان يعقوب بن كلّس ترك ثروة طائلة بعده ، ضياعاً وعيناً وأواني من الذهب والجوهر والفضة والثياب والخيل والابل والغلال وخزائن التحف ، وقد قدرت بأربعة ملايين دينار ،ولكن لا بد من التساؤل لمن ترك ابن كلّس هذه الثروة ؟ فالتاريخ يذكر أنه لم ينجب من الأولاد سوى ابنتين ، زوّج احداهن الى « فضل بن الفرات » ، والثانية الى « رشيق العزيزي » وذكر أن قصره تحول الى ما يشبه المتحف بعد وفاته ، كما أن مكتبته نقلت الى مكان آخر ·· وكان قصره يقع في حارة « الوزيرية » الى الجنوب الغربي من القصر الصغير على مقربة من باب الفرج على

الخليج ، وكان أشبه ما يكون بمدينة قائمة بذاتها ، ففيها كل ما يتطلبه الانسان ، ومن الجدير بالذكر ... أنه كان يقيم في هذا القصر بجناح خاص أعده لنفسه ، وفي هذا الجناح كان يجتمع مع كل من له حاجة ، أو يريد عرض مظالمه ، أو الاستماع الى الدروس .

أجل ... كان ابن كلّس يمتلك طاقة كبرى من الذكاء والعبقرية والخبرة العالمية في الشؤون المالية والاقتصادية والادارية ، ومتضلعاً بمعرفة أحوال الريف والزراعة والري وأنواع الغلال والبذار الصالحة ، وقد ذكر أنه أفاد مصر الزراعية كثيراً ، ولم يسأل عن قضية الا وأجاب عنها بمعرفة ويقين وعلم ودراية ، وفي المجال الاقتصادي فان الديار المصرية بعهده نعمت بالهدوء والازدهار الاقتصادي والمالي ، فامتلأت خزائن الدولة بالثروات ، ولكن في سنة ٣٧٣ هـ . ظهرت بوادر الغلاء والمجاعة بسبب انخفاض نهر النيل ، وفي تلك الفترة كان ابن كلّس محجوراً عليه كما ذكرنا ، وعند اشتداد الأزمة افتقد الخليفة العزيز بالله الوزير العلامة ولم يجد في جميع أنحاء الدولة من يسد فراغه بانقاذ البلاد مما هي عليه ، وعندما صدر بيان بتبرئته من التهمة ، عاد الى وظيفته ، وشمر عن ساعد الجد ، وفي وقت قصير وجد العلاج الناجع ، وتمكن من انقاذ البلاد وارجاع الأمور الى نصابها ، فعظمت مكانته ، وأقبلت عليه الدنيا من جديد ، وظل قائماً بخدماته حتى وفاته .

المصادر الفاطمية تجمع على القول : بأن ابن كلّس كان مسلماً عن يقين وايمان وحقيقة ، وأنه كان متمسكاً بأهداب الدين يطبق قواعد الاسلام وأصوله وأحكامه ، وكان مختصاً ومعتنقاً الفقه لجعفري ، وقد مرّ معنا أنه ألّف فرقة في الأزهر من المدرسين والفقهاء لتدريس هذه المادة ، وتعتبر الرسالة الوزيرية المصدر الأول والأساس لأحكام هذه المادة ، ويجب أن لا ننسى أنه وفد على مصر بعهده عدد من العلماء من جميع أقطار العالم الاسلامي ، فأقاموا في مصر للدرس والتحصيل ، وأجرى ابن كلّس عليهم الرواتب والأرزاق ومنهم :

أبو عبدالله بن محمد بن جعفر التميمي المغربي المعروف « بالقزاز » القيرواني النحوي ، وكان يحمل لقب شيخ اللغة العربية في المغرب . ويقولون عنه .

« ان القزاز فضح المتقدمين وقطع ألسنة المتأخرين » .

ومنهم : الحسين بن عبدالرحيم « الزلازلي » مؤلف كتاب « أنواع الأسجاع » والتميمي « الطبيب » والبديهي الذي أخذ عنه ابن كلّس علم العروض .

قال أبو حيان التوحيدي : سألت التميمي الشاعر المصري عن ابن كلّس فقال :

ذاك رجل ضيافة .. له زوار كالقطر ، يعطي على القصد والتأميل والطمع والطلب وليس عنده امتحان فالراحل شاكر .

ومن الشعراء الذين خصهم برعايته أبو الرقعمق الشاعر الفكه الذي قدم مصر ونال رفده ، والانطاكي ، والرسّي ، وغيرهم شعراء عدة حظوا بمثل هذه الرعاية ٠

وخلاصة القول :

ان الوزير ابن كلّس كان مثلاً أعلى في الاخلاص للدولة الفاطمية الفتية ، وكان كريم اليد جزيل العطاء محسناً للناس ومحباً لعمل الخير ، واذا علمنا أن مائة شاعر وقفوا على قبره ورثوه ، أدركنا منزلته ،ومن المؤسف أن قصائدهم فقدت ، ولم يبق الا هذه الأبيات للشاعر أبو الرقعمق :

لمْ يدع للعزيز في سائر الأر ض عدواً الا وأخمد ناره
ونهذا اجتباه دون سواه واصطفاه لنفسه واختاره
لم تشيّد له الوزارة مجداً لا ولا قيل رفعت مقداره
بل كساها وقد تخرّمها الدهر وكر الخطوب بالبذل غاره
هكذا كل فاضلٍ يده تمسي وتضحي نفاعة ضراره
فاستجره فليس يأمن الاّ من تفيأ بظله واستجاره

في نهاية المطاف لا بد من القول :

ان ابن كلّس سهر على الحياة الاقتصادية لمصر ، ووضع العديد من الأسس التي سارت عليها الدولة في سياستها الداخلية خصوصاً في النواحي الاقتصادية ، وقد تجلت خبرته بها منذ أن كان قائماً بخدمة كافور الاخشيدي ، ويجب أن لا يغرب عن بالنا بأنه شجّع أصحاب رؤوس الأموال وذوي اليسار والتجار بالحضور الى مصر واستثمار أموالهم فيها ، والى جانب الرخاء الاقتصادي عمّ الأمن والاستقرار وانتشر العدل وانفتحت مصر على العالم ، وانتظمت المواصلات والاتصالات والبريد ٠

ويذكر التاريخ الفاطمي :

أنه لم يكن في البلاد الاسلامية دار للكتب أعظم من التي كانت في القصر الفاطمي ، ومن الجدير بالذكر أنه كان فيها ألف ومائتا نسخة من تاريخ الطبري وحده ، وذكر أنها كانت تشتمل على مليون وستمائة ألف كتاب، ويؤكد ذلك ما ذكره القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي ، بأنه لمّا أنشأ المدرسة الفاضلية في القاهرة جعل فيها مائة ألف مجلد كلها نُهبت من القصور الفاطمية ٠

لقد كانت تلك المكتبة العامرة وأمثالها سبباً للنهضة العلمية والأدبية التي تلألأت في العهد الفاطمي والتي استمرت آثارها في الدولة الأيوبية ٠

ولكن مما يؤسف له أن القضاء على الدولة الفاطمية قد رافقه عبث الأيدي الجاهلة بتلك المكتبة ٠

لعلّ كلمتنا جاءت كافية للتعريف بالوزير يعقوب بن كلّس ، ووصف سيرة حياته وما قام به من أعمال في حياته الحافلة بالنشاط والوطنية والاخلاص ٠

مصادر البحث :

تاريخ الدولة الفاطمية : حسن ابراهيم حسن ٠

المعز لدين الله : حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف ٠

كنوز الفاطميين : زكي محمد ٠

تاريخ جوهر الصقلي : علي ابراهيم حسن ٠

في أدب مصر الفاطمية : محمد كامل حسين ٠

مصر في عهد الدولة الفاطمية : محمد جمال سرور ٠

مجموعة الوثائق الفاطمية : جمال الدين الشيال ٠

نظم الفاطميين في مصر : عبد المنعم ماجد ٠

نظم الحكم في مصر الفاطميين : مصطفى عطية مشرفة ٠

عبقرية الفاطميين : محمد حسن الأعظمي ٠

نظام الوزارة في العصر الفاطمي : جمال الدين الشيال ٠

أهل الذمة في العصر الفاطمي : جمال الدين الشيال ٠

★ ★ ★

الحواشـــي :

١ ـ قائد تركي لعب دورا كبيرا في حروبه التي خاضها ضد الفاطميين في ديار الشام ، وخاصة عندما انضم الى القرامطة اتباع « الحسن الأعصم » ٠٠٠ وفي معركـة « الرملة » انتصـرعليهما الخليفة العزيز وقائده « جوهر الصقلي » فقبضاعليه٠٠ وساقاه الى القاهرة بحيث أكرمه العزيز بالله ، ومحضهوده وعواطفه وسمح له بالاقامة في القاهرة معززا مكرما ٠

٢ ـ الصحيح أنه مات عام ٣٨٠ كما ورد في شذرات الذهبوغيره والعزيز الفاطمي توفي عام ٣٨٦ وهكذا يمتنع وفاة ابن كلس في سنة ٣٩٤ (ع٠ي) ٠

★ ★ ★